رثية محمد محمود باشا

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

دَفَنَتْ وَرَاءَكَ فَجْرَهَا الأَيَّامُ ... سِيَّانِ بَعْدَكَ صَحْوَةٌ وَظَلَامُ !
نَفَضَ الرَّدَى مَغْنَى الْحَيَاةِ بِخَاطِرِي ... حَزَنًا ، وَمَاتَتْ فِي دَمِي الأَنْغَامُ
لاَ اللَّيْلُ مَسْحُورُ السُّكُونِ ، وَلاَ الضُّحَى
كَجَبِينِ مَجْدِكَ آلِقٌ بَسَّامُ

أَنَا ذَلِكَ الطَّيْرُ الَّذِي خَلَّفْتَهُ ... وَلَظَى الْهَجِيرِ لِنَوْحِهِ إِلْهَامُ
تَرِدُ الأَسَى شَبَابِي فَكَأَنَّهَا ... حَطَبٌ يُجَاذِبُ صَفْحَتَيْهِ ضِرَامُ
وَكَأَنَّ عُمْرِيَ زَهْرَةٌ بَرَّبْتَهُ ... لاَ الظِّلُّ يُنْعِشُهَا وَلاَ الأَنْسَامُ
وَكَأَنَّ رُوحِي فِي الدُّجَى صَبَّارَةٌ ... بَيْنَ الْقُبُورِ حَدِيثُهَا إِعْجَامُ
سُقِيَتْ بِدَمْعِ الثَّاكِلِينَ فَأَطْرَقَتْ ... ثَكْلَى تَفَزَّعُ صَمْتَهَا الأَحْلاَمُ
مَاذَا دَهَى وَتَرَى وَكَانَ مُجَلْجِلاً ... بِعُلاَكَ تَنْقُلُ شَدْوَهُ الأَجْرَامُ؟
شَلَّتْ عَلَيْهِ أَنَامِلِي وَتَمَلْمَلَتْ ... كَبِدِي وَغَشَّتْ حَيْرَتِي الآلاَمُ
فَوَجَمْتُ كَالْمَأْخُوذِ أَيُّ بَقِيَّةٍ ... لِلْوَعْيِ تَنْشُدُهَا بِهِ الأَوْهَامُ !
أَرْثِيكَ، يَا لِخَطِيئَةِ الدُّنْيَا وَهَلْ ... يَرْثِي الْمَعَانِي الشُّمَّ فِيكَ كَلاَمُ

ضَجَّ الأَثِيرُ وَقَدْ رَمَى النَّاعِي بِهِ ... خَبَرًا لَدَيْهِ انْشَقَّتِ الأَفْهَامُ
وَالنِّيلُ كَادَ جَوَى يَمِيدُ ضِفَافُهُ ... وَتَصَوَّحُ الرَّبَوَاتُ وَالآجَامُ
وَالشَّرْقُ جَلَّلَهُ السَّوَادُ، فَقُدْسُهُ ... دَامِي الْحَشَا ، وَعِرَاقُهُ ، وَالشَّامُ
وَالأَرْزُ مُرْتَعِشُ الضَّفَائِرِ ذَاهِلٌ ... بَنَتْهُ نَارَ جِرَاحِهَا الأَهْرَامُ !
أَمُحَمَّدٌ كَذَبَ النُّعَاةُ فَلَمْ يَمُتْ ... مَنْ رِيعَ يَوْمَ فِرَاقِهِ الإِسْلاَمُ
وَمَنِ الْتَقَتْ مِصْرٌ وَرَاءَ رِكَابِهِ ... شَيْبًا يُؤَلِّفُهَا أَسًى وَوِئَامُ
وَمَنِ اصْطَفَاهُ الْمَجْدُ حَتَّى لَمْ يَكُنْ ... إِلاَّ لَهُ صَرْحُ النُّجُومِ مَقَامُ
وَمَنِ انْتَضَى الأَخْلاَقَ سَيْفًا شَرْعُهُ
أَنَّ الْغُمُودَ عَلَى السُّيُوفِ حَرَامُ

وَمَنِ اسْتَعَارَ النُّورُ حُجَّتَهُ فَلاَ ... زَيْفٌ وَلاَ رَهَبٌ وَلاَ إِبْهَامُ
وَمَنِ اسْتَجَارَ الْقَيْدُ حِينَ أَذَاقَهُ ... لَهَبًا يَؤُزُّ جَحِيمَهُ الإِقْدَامُ
وَمَنِ الْتَزَاهُ كَالضُّحَى لاَ رَأْيُهُ ... يَزْوَرُّ عَنْ فِيهَا وَلاَ الأَحْكَامُ
وَمَنِ الْحَدِيدُ يُقَلُّ دُونَ عِنَادِهِ ... إِنْ رَامَ كَيْدَ بِلاَدِهِ ظَلاَّمُ
فَلَكٌ يُهَابُ الدَّهْرُ بَأْسَ مَدَارِهِ ... دَارَتْ عَلَيْهِ بِضَعْفِهَا الأَسْقَامُ
وَطَوَاهُ مَنْ حَصَدَ السِّنِينَ بِمِنْجَلٍ ... ضَافِي الْجَلاَلِ يُقَالُ عَنْهُ: حِمَامُ !
قَدَرٌ رَمَى قَدَرًا عَلَى رَاحَاتِهِ ... يَبْيَضُّ مِنْ لَيْلِ الْخُطُوبِ قَتَامُ
وَاتَاهُ وَالأَيَّامُ حَوْلَ سَرِيرِهِ ... أَيْدٍ يُرَقْرِقُ طُهْرَهَا الإِحْرَامُ
تَدْعُو السَّمَاءَ لَعَلَّ كَفَّ طَبِيبِهِ ... رَغْمَ الْقَضَاءِ يَعُودُهَا الإِلْهَامُ !
وَاللَّيْلُ تَجْأَرُ بِالدُّعَاءِ نُجُومُهُ ... وَيَئِنُّ تَحْتَ قِبَابِهِ الإِظْلاَمُ
وَالعَائِدُونَ الْجَازِعُونَ حَدِيثُهُمْ ... كَدُمُوعِهِمْ بَاكِي الصَّدَى هَمْهَامُ
وَالْقَصْرُ مَخْنُوقُ السَّكِينَةِ شَارِدٌ ... سَجَّاهُ فِي لَهَبِ الذُّهُولِ مَنَامُ
هَتَكَ الرَّدَى أَسْتَارَهُ ، فَإِذَا بِهِ ... قَلْبٌ يُمَزِّقُ صَفْحَتَيْهِ حُسَامُ
وَإِذَا « مُحَمَّدُ » أُمَّةٌ مَحْمُولَةٌ ... فَوْقَ الرِّقَابِ تَلُفُّهَا الأَعْلاَمُ
وَقَصِيدَةٌ دَهْرِيَّةٌ يَبْلَى البِلَى ... وَنَشِيدُهَا تَحْنُو لَهُ الأَيَّامُ
مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَهَابُ جِوَارَهُ ... أَمْسَى يُجَاوِرُهُ حَصًى وَرِجَامُ
يَا زَيْفَ هَانِيكَ الْحَيَاةُ ! وَيَا لَهَا ... دُنْيَا حَقَائِقُ سِرِّهَا أَوْهَامُ !

لَمَحَتْهُ صَحْرَاءُ الإِمَامِ فَأَوْشَكَتْ ... يَخْضَرُّ فِي يَدِهَا بِلًى وَرِمَامُ
وَتَنَفَّسَتْ نَفَسَ الرَّبِيعِ كَأَنَّمَا ... فَضَّتْ فَوَاغِمَ عِطْرِهَا الأَكْمَامُ
وَكَأَنَّهَا ظَمْآَى إِلَى نَبْعِ الْهُدَى ... وَالطُّهْرِ يُقْلِقُهَا صَدًى وَأُوَامُ
لَمَحَتْهُ فَارْتَجَزَتْ مَسَابِحُ رَمْلِهَا ... لَحْنَ الْجَلاَلِ وَكَبَّرَ النُّوَّامُ !
وَتَوَاكَبَ الشُّهَدَاءُ أَيُّ مُوَدَّعٍ ... هَذَا الَّذِي خَفُّوا إِلَيْهِ وَقَامُوا ؟
وَقَفُوا مَعَ التَّارِيخِ صَوْبَ رِكَابِهِ ... يَحْدُوهُمُ التَّقْدِيسُ وَالإِعْظَامُ
وَالشَّمْسُ شَلاَّءُ الشُّعَاعِ بَكَى لَهَا ... لَمَّا بَكَتْكَ إِلَى الْمَغِيبِ غَمَامُ
غَرْبِيَّةٌ وَدَّتْ لَوِ انْشَقَّ الدُّجَى ... وَأَضَاءَ لَيْلَكَ طَرْفُهَا السَّجَّامُ
لِمَ لاَ وَمَجْدُكَ سَارَ فِي أَبْرَاجِهَا ... وَعُلاَكَ مِنْهَا يُرْتَجَى وَيُرَامُ !

يَا مُرْسِلَ النَّظَرِ الْبَعِيدِ بِخَاطِرٍ ... فِي غَيْبِهِ تَتَعَثَّرُ الأَحْلاَمُ